الفكر اللساني عند عبد القاهر الجرجاني
و آثاره في اللسانيات الحديثة

د.قلايلية العربي

كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية

جامعة وهران

لقد استقرأ عبد القاهر الجرجاني(ت: 471هـ)مكوّنات التراكيب اللّغوية،و توّصل إلى إحصاء الأصول التي يتركّب منها الكلام و التي تحصل بها العلاقة بين الكلمات،و هذه الأصول هي الأسماء و الأفعال و الحروف باعتبارها الوحدات الأساسية التي تشكّل الرّصيد اللّغوي في كل لسان،يقول:"معلوم أن ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض و جعل بعضها بسبب من بعض،و الكلم ثلاث:اسم و فعل و حرف،و للتعليق فيما بينها طرق معلومة،و هو لا يعدو ثلاثة أقسام:تعلّق اسم باسم،و تعلّق اسم باسم،و تعلق اسم بفعل،و تعلّق حرف بهما[1]

يفهم من كلام الجرجاني أنّ النحو العربيّ في جوهره قائم على فكرة التعليق أي إحداث العلاقات بين الألفاظ لتصبح دالة على معان تفهم من الكلام،و هذه العلاقات هي التي عبّر عنها سيبويه من قبل بالإسناد هكذا:"هذا باب المسند و المسند إليه و هما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر و لا يجد المتكلّم منه بدًّا،فمن ذلك الاسم المبتدأ و المبنيّ عليه،و هو قولك عبد الله أخوك،و هذا أخوك،و مثل ذلك يذهب عبد الله،فلابدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدّ من الآخر في الابتداء[2]

إن سيبويه من خلال حديثه عن الأسناد يشير إلى العلاقات التي تربط الكلمات بعضها ببعض،و هذا ما بدا جليّا فيما بعد عند عبد القاهر الجرجاني .

تبدو ملامح الفكر العربي اللّساني جليّة عنده في كتابه دلائل الإعجاز على الخصوص ،و ربّما أدرج الجرجاني بمؤلفه هذا في مصاف البلاغيين في ذلك الوقت و بعده،و لكننّا اليوم نرى أنّه أوّل ألسني عربي نقل الدّراسات اللغوية و النّحوية بالخصوص من مدارج المعيارية و النّمطية إلى دراسة لسانية حقيقة تتناول النّص برمّته نقدا وتعليلا أي من(ما ينبغي أن يقال)إلى(لماذا قيل هكذا)،و هو من خلال نظريته(النظم)يسعى إلى تتبّع خواص تركيب الكلام،فمدار أمرها على النحو أو قل على علم التراكيب و هي و الحال هذه أمسّ رحما بالدّراسة اللّسانية منها بالدّراسة البلاغية[3].مثل عبد القاهر الجرجاني كمثل فرديناند دي سوسير الذي ضاق ذرعا بما أصبحت تتخبط فيه الدّراسات اللغوية حيث كانت عالة على مناهج العلوم الأخرى،و لم تستطع أن تشق لنفسها منهاجا خاصا بها نابعا من طبيعتها،فجاء دي سوسير ليفجّر تلك الصّخرة الصّماء فانبجس الماء منها،و كذلك الجرجاني شاهد أن أفكار معاصريه انصرفت عن النحو،واعتبرته عائقا أمامها لفهم الإعجاز لذلك فهو في دفاعه عن النحو،يهدف إلى أن النحو أساس الإعجاز؛و لا يمكن أن يفهم الإعجاز إلا عن طريق النحو،لأن القرآن الكريم نزل باللّغة العربية التي كان يجري بها التباري و التنافس بين الفصحاء من العرب و مع ذلك فإن الجرجاني ينصف الثائرين على النحو من بعض جوانب ثورتهم،كرفضهم مثلا لبعض المتاهات التي أقحم النحاة أنفسهم فيما:"كقولهم:كيف تبنى من كذاو كذا؛و كقولهم:ما وزن كذا؟و تتبعهم في ذلك الألفاظ الوحشية كقولهم:"ما وزن عزويت،و ما وزن أرونان،و كقولهم في باب ما لا ينصرف:لو سميت رجلا بكذا كيف يكون الحكم؟...[4]،هذه بعض الإفتراضات و الاحتمالات التي أدى إليها الإيغال في الصّنعة،و لا ينبغي في نظرته أن تحجب الرؤية السّليمة إلى النّحو كلّه،إذ لا يمكن أن نتوصل إلى معرفة دقائق الأسلوب القرآني من غير نحو؛قال تعالى على لسان نبيّه موسى عليه

السّلام:"ما جئتم به السحر"جاء لفظ السّحر معرّفا بالألف و اللاّم:و ما الفرق بين كونه كذلك و بين مجيئه نكرة(سحرا)؛ففي الحالتين يُعرب خبرا للمبتدأ (ما)اسم الموصول و لكن مجيئه معرفا بالألف و اللام دلّ على أن المقصود منه جنس السّحر كلّه،و ذلك لأن العصر كان عصر التباري في صناعة السّحر و التباهي به بحيث كانت تعقد له المجالس و يحشر الناس لرؤية أعمال السحرة،لذلك أشارت الآية السابقة في دلالتها على أن ما جاء به السّحرة كأنه السّحركلّه أي أنهم أعملوا كلّ جهدهم و أفرغوا كل طاقاتهم فيما واجهوا به موسى عليه السّلام،و كذلك في قوله تعالى:﴿إمّا أن تلقي و إمّا أن نكون أوّل من ألقى﴾ لم يقل:"إمّا أن تلقي و إمّا أن نلقي"لينسلك الإثنان في سمت واحد على قدم المساواة في التخاطب و القيمة .فالسحرة و لاشكّ كانوا مغرورين بما لديهم من معرفة بتعاطي السّحر،و قد خاضوا فيه مباريات كثيرة من قبل واجتمع النّاس حولهم مبهورين بما لديهم من قوى فيه،و هم في ذلك كلّه يكبرون من شأن فرعون و يزيدون في سطوته و جبروته أمام النّاس،و ها هم الآن يحضرون صفّا واحدا متآزرين ضدّ موسى عليه،و هو وحيد أمامهم ليس له من مؤيّد إلاّ الله و قوته تكمن في عصاه فهي مفتاح معجزته لكنّه لم يجرّبها،و قد خاطبهم من منطق الوحي قائلا:﴿ويلكم لا تفْتَرُوا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب،و قد خاب من افترى﴾فلمّا سمعوا ذلك منه علموا أنّه من غير مألوف الكلام عندهم،إنه كلام من قبيل آخر،فهو من كلام النبوّة لذلك"فتنازعوا أمرهم بينهم و أسّروا النّجوى"و انفرط عزمهم و شكوا في أمرهم لكنّهم أصرّوا على المبارزة خوفا من تثبيطهم أتباعهم وانحطاط منزلتهم بينهم،فأجهدوا أمرهم،و أبرموا عزمهم على أن يدخلوا المبارزة مع موسى عليه السّلام لذلك قالوا:"يا موسى إمّا..."فخيرّوه إمّا أن يكون هو الباديء،و إمّا أن يكونوا هم،و هذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه،و تواضع له و خفض جناح و تنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم،و على موسى اختيار إلقائهم أوّلا...حتّى يبرزوا ما معهم من مكايد السّحر... [5]، ثم يأتي الحق فيدمغ الباطل و هذا هو الذي حصل؛لكنّ قولهم السّابق الذي حكاه القرآن على ألسنتهم (إمّا أن...و إمّا...)يحتمل عدة دلالات لعلّ أهمّها:

1-خوف السحرة من أن تكون الغلبة لموسى عليهم،فيفضح أمرهم و يضعف جانبهم،و هم يجهلون ما سيأتي به موسى،و كأنّهم يريدون أن يعرفواما عنده فيواجهونه بما لا يقدر أن يردُّه،لذلك قالوا"و إمّا أن نكون..."فنأتيك بما لا قبل لك به و لا تستطيع أن تقاومه،و إنّما قالوا ذلك لإدخال الخوف إلى قلبه و تظاهرهم بالقوة أمام أنصارهم.

2-لقد رأوا موسى وحيدا أمامهم فاستعملوا الأدب معه و أنصفوه من أنفسهم و ربّما شاهدوا علامات الخوف بادية الصفحة عليه بدليل أنّه أوجس في نفسه خيفة عندما خيّل إليه أن حبالهم حية تسعى،لذلك قالوا (إمّا أن تلقي...)لإيناسهم القوة في أنفسهم و الغلبة لهم فمادامو هم الذين سيغلبون فلا بأس أن يفسحوا له المجال ليلقي هو أوّلا إذ في زعمهم أنه لا يأتي بشيء خطير يخافونه.

3-يحتمل قولهم"إمّا أن تلقي..."إنّهم أرادوا أن يظهروه أمام الحشد بأنّه هو الباديء بالعدوان فلا لوم عليهم أن يردّوا عليه بما يؤذيه و يهلكه .

على هذا النهج يسير الجرجاني ضاربا أمثله من عنده،ثم من كلام العرب و بالخصوص الشعر إلى أن يصل إلى تحليل الآيات القرآنية التي بها يتحقق الإعجاز،و ممّا ينبغي الإقرار به هو أن الأفكار التي كانت تراود عبد الفاهر الجرجاني تجد لها أثرا بيّنا في مناهج الدّراسات الحديثة سواء عند العرب أو الغربيين،لذلك قال فندريس "نحن نفكر بجمل[6]و هذا يعني أن الفكر لا يستطيع أن يشتغل خارج اللّغة،فخارج اللغة يعني الغموض و الإبهام و عدم الإبانة،و هذه الفكرة تبدو عند الجرجاني جليّة و قد بنى عليها نظرية النّظم،و ما فتيء يرددّها بكيفيات متعددة في كتابه "دلائل الإعجاز"و بخاصة عندما تحدّث عن ترتيب الأفكار في الذهن أوّلا،ثم إلباسها الألفاظ و النطق بها ثانيا و ثالثا.

لقد حاول نعوم تشومسكي أن يعمّق هذه الفكرة انطلاقا من المصطلح الذي جاء به و هو(البنية العميقة)و هو يتحدث عن(مركز الاهتمام)و يعني به التحوّل من دراسة السّلوك الفعلي للغة إلى دراسة نظام المعرفة التي تكمن وراء استخدام و فهم اللغة،أي من دراسة اللغة التي تعدّ موضوعا مجسّدا إلى دراسة نظام معرفة اللغة المحصلة و الممثلة داخليا في العقل/الدّماغ...[7]. أمّا إذا نظرنا إلى اللغة المجسدّة(اللّسان)في كل مجتمع على حدة أو عند كل فرد في المجتمع نفسه فإننا نواجه الكثير من التعقيدات و المشاكل و ذلك لأنّ اللغة المجسّدة تختلف من مجتمع إلى آخر كما تختلف من فرد إلى آخر في المجتمع نفسه،و من هنا فإن فكرة تشومسكي حول مركز الاهتمام أي دراسة نظام معرفة اللغة المحصلّة و الممثلة داخليا في العقل/الدماغ تبدو أكثر عمقا ووجاهة،و لا يمكن أن يكشف عنها إلاّ النحو التحويليّ باعتباره ترجمانا للبنية العميقة التي هي أساسا انعكاس للبنية الدّماغية،و ليس لدى الباحث إلاّ وسيلة وحيدة للوصول إلى ذلك المخزون الفكري لدى الفرد و المتمثل في كيفية استخدام لغة مجتمعه،و هذه الوسيلة هي التي نطلق عليها مصطلح النحو بصفة عامة في مفهومه الدقيق المرتبط أصلا بالفكر(الدماغ/العقل)و ليس باعتباره أنماطا و قواعد جاهزة يمكننا أن نقلدها سطحيا.و لعلّ أعقد مشكلة يواجهها الفكر الإنساني في تعامله مع لغته هي مشكلة الاختيار و الانتقاء،إنّ مبدأ الاختيار هذا يعمل في اتجاهين متعاكسين و لكنّهما متكاملان:

أ-الاتجاه الأول هو اشتغال الفكر في المعاني التي يريد التعبير عنها؛في مقابل الألفاظ اللّغوية(الوحدات الدالة)،و الملاحظ في هذا الصدد أن دائرة المعاني لا حصر لها فهي تتسع باستمرار لاتساع مجالات الحياة و حقول المعرفة و غير ذلك،أما(الوحدات اللغوية)التي يعتمد عليها الفكر في التبليغ و التعبير غير كافية،أو على الأقل فإن الفكر الإنساني مهما اجتهد في معرفة لغته فإنّه لا يستطيع أن يوجد لكلّ معنى لفظا يعبّر عنه؛و من هنا فإنه غالبا ما يحمل اللّفظ معاني و دلالات جديدة ليست أصلية للّفظ،و هذا ما يحفز الفكر على الخلق و الإبداع اللّغويين،و هذه خاصة من خواص الفكر في تعامله مع اللغة،و بعبارة أخرى يمكننا أن نقول:إن (العقل/الدماغ)يستعمل الحيلة و الذكاء في استخدام اللّغة،و من هنا فإننا نجد الاختلاف كبيرا و متنوّعا بين الأساليب عند الناطقين و المبدعين،و قال الشاعر العربي:

إنّ الكلام لفي الفؤاد و إنّما***جعل اللّسان على الفؤاد دليلا

و المقصود باللّسان هو اللغة الخاصة بالفرد أو المجتمع،فهي عنده دليل يدل على المعنى و لا يعبّر عنه على وجه الدّقة لأن الأفراد في المجتمع الواحد يختلفون في التعبير عن المعنى الواحد؛و يتفاوتون في ذلك قربا وبعدا من المعنى إذ لو كان التعبير عن المعنى الواحد لا يتم إلاّ بوجه واحد لصعب كبيرا على الناطقين ،التعبير عن كثيراً من المعاني؛و لقد روي عن ابن المقفع أنّه كان يتوقف أثناء الكتابة،فقيل له لم ذلك؟فأجاب بأنه يتوقف ليتخير اللّفظ المناسب للمعنى الذي يريده.

ب-الاتجاه الثاني:يتمثل في محاولة التحرّر و الخروج عن طوق الضوابط النّحوية و قوانين الإعراب،و ذلك لأن المبدع قد يكون بصدد البحث عن الألفاظ المعبّرة عن الأفكار التي يريد إيصالها أو التعبير عنها،كما سبق ذكر ذلك،و هنا قد يجد نفسه مضطرّا للتوفيق بين ثلاثة أمور: الألفاظ و المعاني و قوانين النحو:و هذه الثلاثة هي التي لحول الجرجاني أن يقيم عليها نظرية النّظم؛فهو عندما يتحدّث مثلا عن جمال الاستعارة في قوله تعالى:﴿واشتعل الرأس شيبا﴾[1]،يقول:"لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة* و لم ينسبوا الشرف إلاّ إليها،و لم يروا للمزيّة موجبا سواها،هكذا...و ليس الأمر على ذلك...و لكن لأن سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء،و هو لما هو من سببه فيرفع به ما يسند إليه،و يؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده مبيّنا أنّ ذلك الإسناد و تلك النسبة إلى ذلك الأول إنّما كان من أجل هذا الثاني،و لما بينه و بينه من الاتصال و الملابسة كقولهم:"طاب زيد نفسا"و"قرّ عمرو عينا"... و أشباه ذلك ممّا تجد الفعل فيه منقولا عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه،و ذلك أن نعلم أن(اشتعل)للشيب في المعنى،و إن كان هو للرأس في اللّفظ...[9]

*-الاستعارة عند العرب تشبيه حذف أحد طرفيه:و هو هنا في الآية:تشبيه شعر الرأس بالوقود ثم حذف المشبه به و رمز إليه بشيء من لوازمه و هو اشتعل على سبيل الاستعارة المكنيّة

إن منهج الجرجاني في نظرية النّظم ينطلق أساسا من التراكيب اللّغوية و العلاقات القائمة بين الألفاظ،هذه العلاقات هي التي تحدّد الرّتب الإعرابية و الوظائف النحوية لكل لفظة أو كلمة في التركيب اللّغوي .

و إذا كانت نظرية العامل التي بنى عليها صرح النّحو العربي تبحث في التغيرات التي تعتري الكلمة في السياق من رفع أو نصب أو جر أو ما إلى ذلك ،و تعزو سبب هذا التغيّر إلى اللفظ(العامل)و تأثيره في معموله،فإن مصطلح التعليق عند عبد القاهر الجرجاني يكتسب طابعا تجريديا فكريا متصلا أساسا بالبنية العميقة الماثلة في ذهن المتكلم،وانطلاقا من هذا المفهوم التجريدي للتعليق نستطيع أن نلاحظ أن النحو عند عبد القاهر الجرجاني يكتسب طابعا تجريديا فكريا متصلا أساسا بالبنية العميقة الماثلة في ذهن المتكلم،وانطلاقا من هذا المفهوم التجريدي للتعليق نستطيع أن نقول أن تركيبا لغويا مثل قولنا:(هذا الرجل أخلاقه كريمة) 1

يمكن تمييزه عن جملة من التراكيب الأخرى مشابهة له لفظا و معنى مثل:

-هذا رجُلٌ كريمة أخلاقه ←2

-هذا رجل كريم الأخلاق ←3

-هذا الرجل كريم الأخلاق ←4

في التراكيب الثلاثة نستنتج مفهوما عامّا هو:"الإشارة إلى رجل ووصفه بكرم الأخلاق" 5 ←

و لنتأمل هذه التراكيب واحدا واحدا؛ففي التراكيب(1)نلاحظ ما يأتي:

-الإشارة إلى رجل معيّن ووصف أخلاقه بالكرم

-المشار به(هذا) و المشار إليه(الرّجل)كلاهما مبدل من الآخر

-الإشارة لتوجيه الاهتمام إلى المشار إليه

-(أخلاقه كريمة) ←الإخبار عن أخلاق الرّجل بالكرم

-البنى العميقة لهذا التركيب هي:

أ-أخلاق الرّجل كريمة

ب-هذا الرّجل أخلاقه كريمة

أمّا في التركيب(2)نلاحظ ما يأتي:

-المشار به(هذا)

-المشار إليه(رجل كريمة أخلاقه)

-البنى العميقة لهذا التركيب هي:

أ-هذا رجُلٌ ←مبتدأ و خبر(هذا مسند إليه)،و رجل(مسند)

ب-كريمة أخلاقُ الرّجل ←مبتدأ وخبر،(أخلاق الرّجل) مبتدأ←

كريمة ←خبرقد تقدم الخبرعلى المبتدأ

ج-كريمة أخلاقه ←حذف المضاف إليه و إحلال الضمير محلّه

أمّا في التركيب(3) نلاحظ ما يأتي:

-المشار به(هذا) و المشار إليه(رجل كريم الأخلاق)

-هذا ← مبتدأ،رجل ← خبر

-كريم الأخلاق ← تقديم الصفة(كريم)و إضافتها إلى الموصوف

-أمّا في التركيب(4)فنلاحظ ما يأتي:

-المشار به(هذا) و المشار إليه(الرّجل) ← كلاهما بدل من اللآخر

-كريم الأخلاق ← خبرمضاف،(الأخلاق) ← مضاف إليه

الفكرة العامة هي التركيب رقم(5)

ما نلاحظه من خلال هذه التراكيب أن طرق التعليق تختلف فيها من تركيب لآخر،و هذا ما حدث في عدد قليل من الألفاظ هي:

1-اسم الإشارة

2-المشار إليه(الرّجل)

3-الأخلاق

4-الكرم

إلاّ أن كيفيات هذا التعليق تختلف من تركيب لآخر كما رأينا هذا الاختلاف في الأمثلة السّابقة.

إنّ المنهج النّحوي عند الجرجاني لا يتقيّد بالنّحو كما هو مألوف عند غيره من النّحاة يجرون وراء معرفة إعراب الألفاظ و يتأوّلون الأوجه الإعرابية انطلاقا من الاحتمالات الممكنة بل إنّ القضية عند الجرجاني مرتبطة أساسا بالفكر و بما يمكن أن يعلق به من المعاني و ما يحتاج إليه من ألفاظ ،فلا يتصور الفكر معنى من المعاني إلاّ انطلاقا من تصوّره للعلاقات القائمة بين الألفاظ،و ربّما حدث خلط عند الدّارسين بين النّحو و الإعراب في بعض أوجه الشبه الحاصلة بينهما،فضبط أواخر الكلمات في التراكيب و الجمل والنطق بها سليمة من حيث الرّفع و النصب و الجرّ وغيرها عمل إعرابي جار على سنن العرب في مخاطبتها و موافق للقياس على كلامها؛أمّا النحو فهو الذي يحدّد الوظائف النحوية للكلمات وفقا للعلاقات التي يحدثها الفكر فيها،لذلك قال ابن خلدون:"و لكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب و الإبانة،ألا ترى أنّ قولهم:زيد جاءني مغاير لقولهم:جاءني زيد...فمن قال جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه،و من قال:زيد جاءني أفاد اهتمامه بالشخص قبل(المجيء)المسند..."[10]،لعلّ المقصود هنا(بالمقام)هو الحال الذي يجري فيه الكلام و ما يتطلبه من معان معبّر عنها بالمقال،فإذا كان قصد المتكلم الاهتمام بالمجيء دون نعيين الشخص الجائي بدأ بالفعل و إن كان غرضه تعيين الجائي بدأ بالشخص،و الملاحظ هنا أن ابن خلدون متقيّد بالإعراب لم يخرج عنه و لم ينكره و لا دعا إلى إبطاله أو استبداله،و إنّما أشار هنا ضمنيّا إلى وظيفة النّحوو علاقته بالفكر،و هذا بالضبط منهج الجرجاني.

و إذا نظرنا إلى النحو انطلاقا من مقولة تشومسكي في كتابه(البنى النّحوية)التي مفادها أنّ « النحو جهاز من نوع خاص مصمّم لإنتاج الجمل في اللغة »[11]تبيّن لنا أن هذا الجهاز لا يمكنه أن يعمل إلاّ مرتبطا بالفكر الإنساني الذي لا يشتغل في الفراغ و لا يتصوّر المعاني و الأفكار إلاّ مرتبطة باللّغة التي هو منهاإذ لا يخطر ببال و لا يتصوّر عقل أن الفكر ينظر في المعاني مجرّدة عن ألفاظ اللّغة،فالتعبير عن الأفكار و الآراء و إعطاء وجهات النّظر،و الاستدلال و البرهنة؛ورصد الخصائص و المميّزات بالنسبة إلى الأشياء كلّها أمور لا يشتغل فيها الفكر إلاّ مرفوقة بالألفاظ و التراكيب المعبّرة عنها ، و من ثمّ لابدّ من إيجاد العلاقات و الرّوابط التي تربط بين الألفاظ و هذه التي يسميها النّحاة(بالإسناد)بينما ينظر إليها الجرجاني نظرة أعمق من الإسناد و أطلق عليها مصطلحا آخر هو(التعليق)و هذا المصطلح عنده تعميق للإسناد و ترجمة ذهنية له؛إذ قد يتحقق الإسناد على مستوى

البنية السطحية،كما في المثال الذي أورده الجرجاني و هو قوله تعالى:﴿اشتعل الرّأس شيبا﴾حيث أسند الاشتعال إلى الرأس ؛أما باطنا فلا ،لأنه لا تستساغ العلاقة بين الاشتعال و الشيب ،و من هنا فإعراب(شيباً)تمييز لكنه منقلبٌ عن فاعل إذ الأصل(اشتعل شيب الرّأس)كما سبق،لذلك نستطيع أن نلحظ جيّدا العلاقة بين النحو و الفكر،كما يمكننا أن نفهم أيضا قول ابن خلدون(بعد كمال الإعراب و الإبانة)،انطلاقا ممّا سبق يمكننا أن نستنتج أن:الإسناد غالبا ما يتناول النسب القائمة بين الألفاظ على مستوى البنى السّطحية و يقتصر على الفاعل و الفعل،أو المبتدأ و الخبر،أما التعليق فيتجه إلى تحديد العلاقات بين سائر ألفاظ التراكيب وفق مقتضيات الفكر و منطق اللغة نفسها،و من خلال ملاحظة مصطلح(إنتاج)في مقولة تشومسكي السابقة يتبيّن أنه يريد إنشاء تلك التراكيب و الجمل في بنى عميقة تُعتبرُ وحدات تعبيرية ، اصطلح على تسميتها بالجمل البسيطة،يمكن أن ننعتها في اللغة العربية بالجمل الأحادية الإسناد،و لقد اهتمّ عبد القاهر الجرجاني اهتماما كبيرا بموضوع الإسناد و علاقته بالنحو،فثنائية(الإسناد و التعليق)عنده تأخذ حيزّا كبيرا في تفسير نظرية النّظم؛و ذكر لذلك أمثلة كثيرة من القرآن الكريم و أشعار العرب؛ ففي قوله تعالى:﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾حيث تقدم الضمير المنفصل(أأنت)على الفعل؛و هذا الضمير هو الفاعل في المعنى لكنّ تقدّمه على الفعل قلب الجملة من كونها فعلية(أفعلت هذا بآلهتنا)إلى إسمية (أأنت فعلت)لأن الاهتمام هنا متّجه إلى تعيين الفاعل و ليس الفعل،لأن فعل الكسر قد وقع و شوهد،و بقي أن يقرّوا إبراهيم عليه الّسلام بأنّه هو الفاعل لذلك قال تعالى على لسانهم(أأنت...)،فتكون الجملة حينئذ اسمية مصدرة بحرف استفهام؛و الضمير(أنت) مبتدأ،وجملة(فعلت...)في محلّ رفع خبر،و إذا كان الأصل في الخبر أن يأتي مفردا،فإن الجملة الفعلية (فعلت)في تأويل مفرد بمعنى(فاعل هذا...)بإضافة اسم الفاعل إلى معموله لإفادة وقوع الفعل،إلاّ أننا نحسّ في مجيء الخبر جملة فعلية تأكيدا على وقوع الفعل منه دون سواه و إقراره بفعله أكثر ممّا يستفاد ذلك من صيغة اسم الفاعل؛و على هذا الأساس فإنّ الجرجاني تناول التعليق تناولا عميقا فهو يرى أن التعليق مردّه إلى أمور معنوية تتصّل أساسا بالفكر بحيث يجعل العلاقات الاصطلاحية بين الألفاظ أشبه ما تكون بالعلاقات الطبيعية،إلاّ أن هذه العلاقات تستمد مشروعيتها من خلال التركيب اللّغوي نفسه،أي من خلال تتابع الألفاظ وانسجامها وفق الخط الأفقي،و كذا من تتابع التراكيب في سياق عام يجمعها،فالتعليق عند عبد القاهر الجرجاني يأخذ معنى أوسع و أعمق،إذ لا يسعنا أن نصل إلى إعراب أي جملة إعرابا صحيحا ما لم نكن قد أدركنا جيّدا تلك العلاقات القائمة بين الألفاظ في أي تركيب لغوي،و هنا لابدّ من الانتباه إلى أمر مهمّ عند الجرجاني يتمثل في التكامل بين(العامل و الإعراب)من جهة و التعليق من جهة ثانية؛ففي قوله تعالى:﴿يحسبون كلّ صيحة عليهم ﴾يبيّن أن المفعول به الثاني لحسب هو المحذوف الذي تعلّق به الجار و المجرور(عليهم)أي(يحسبون كلّ صيحة واقعة عليهم)،أمّا إذا علّقنا الجار و المجرور(عليهم)بـ(صيحة)،فقد جانبنا المعنى المقصود؛و صار ذلك من قبيل:(صاح عليه)،و هذا غير المقصود.

يتبيّن ممّا سبق أن الجرجاني يستعمل مصطلح التعليق إلى جانب العامل و الإعراب لتعميق نظرية النّظم عنده؛وجعلها تتصل مباشرة بالدلالة فهوبذلك يجعل كلاًّ من الإعراب و التعليق و العامل تهدف إلى أمر واحد هو بيان الدّلالات المقصودة من التراكيب و الجمل؛ إلا أنّه يمكن اعتبار مفهوم التعليق عنده شاملا و مهيمنا على ما سواه،و لنلاحظ قول الشاعر(12):

أمن المنون و ريبه تتوجّع و الدّهر ليس بمعتب من يجزع

في الشطر الأول من البيت استفهام بالهمزة،يفيد التعجّب ممن يشتكي من نوائب الدّهر؛لأن الدّهر لا يأبه بمن يشتكي،و لا يعوّضه شيئا ممّا أصابه به،لأن المعتب هو الذي يأتي بما يزيل عتاب العاتب له،فهو من جهة شبيه بقولهم:(الإعتراف بالذنب فضيلة)؛و قد قالوا:(ما مسيء من أعتب) ،و نلاحظ أيضا:أن الجار و المجرور(من المنون وريبه)قد تعلق بالفعل تتوجّع ليبيّن سبب وقوع التوجعّ،و تقديم السبب على المسبّب جاء زيادة في الحمل على الاستغراب من حال من يشتكي من الدّهر و الدّهر غير آبه به،وهذا ما أفاده الاستفهام في صدر البيت،كما تعلّق الفعل(تتوجّع)بالمخاطب لإفادة إسناد أو نسبة التوجّع إليه باعتباره فاعلا له

أو متصفا به ،أمّا في الشطر الثاني فقد استؤنف الكلام بجملة اسمية بعد واو ابتدائية و العلاقة بين الشطر الأول و الثاني تظهر في كونه متمّما للأول و مستوفيا معناه،إذ غالبا ما تنسب المنون إلى الدّهر فيقولون(منون الدّهر و ريبه...)

انطلاقا من تصوّر الجرجاني لمصطلح التعليق يمكننا أن نفهم الإعراب و النحو في ضوء هذا المصطلح لأن الألفاظ كما يرى تفيد معنى و لا توصل فكرة إلاّ إذا تعلّق بعضها ببعض و أخذ كل منها بسبب الآخر في السلسلة الكلاميّة،و الفكر لا يعقل فيها معنى من المعاني إلاّ إذا تعلقت ببعضها وفق ضوابط النّحو و قوانينه،فالتعليق إذن أساسه الفكر و الترتيب ناتج عنه و النحو تابع له؛لذلك فإننا لا نستطيع أن نعرب الألفاظ إلا إذا حدّدنا وظائفها النحوية و لا نستطيع تحديد هذه الوظائف إلاّ إذا أدركنا علاقة كل لفظة منها ببقية الألفاظ،و إذا كانت الحركات الإعرابية في الكلام أمارات على الوظائف النحوية فإنّ التعليق هو التفسير العميق لتلك الوظائف؛لأنه يبحث فيها و يبيّن سبب مجيئها على هذا الترتيب أو ذاك...أو كيفية حدوثها على هذا الوجه أو ذاك ؛فبالنسبة إلى المتكلّم،فإن التفكير في المعاني سابق للألفاظ،لأننا نفكر في المعاني و كيفية ترتيبها أوّلا ثم نأتي بالألفاظ المعبّرة عنها و هنا لابدّ من إحداث التعليق فيما بينها لإخراجها إلى الوجود و الواقع ،أمّا بالنسبة إلى المخاطب فإنّه يلتقط الألفاظ أوّلا،ثم تصعد دلالاتها إلى ذهنه مشوشة و قلقه لا تأخذ مراتبها الذّهنية إلاّ بعد تمام الاستماع إلى التراكيب و الجمل من المتكلم ،فالتعليق عند المتكلم يكون سابقا للتلفّظ أحيانا و متزامنا معه أحيانا أخرى،أمّا عند المخاطب فلا يكون إلا تاليا للسّمع و مقتفيا أ ثره،لأنّ المرسلة اللّغوية هي عبارة عن رموز لغوية يحمل كلّ رمز لغوي منها دلالة أو معنى خاصّا به ،فإذا انتظمت هذه الرّموز في أفعال كلامية أخضعها المتكلم لقوانين النّحو و ضوابطه و تعلقت كل كلمة منها بما يليها أو يسبقها في السّياق الكلامي و ذلك حسب قدرات المتكلم و كيفية استخدامه اللّغة، والمرسلة اللغوية تقوم في ذهن المتكلّم على شكل مفاهيم و تصوّرات تنشأ تدريجيّا و بصفة متتابعة حتى تكتمل أفكارها و تتحّد معانيها و تلتئم أطرافها و تنضام أجزاؤها فيشرع صاحبها في إلقا ئها أو كتابتها متحكما فيها فكرة فكرة حسب أهميتها و وفق الطريق التي أرادها لها،أمّا بالنسبة إلى المتلقي فهو في العادة يكون خالي الذهن ممّا سيلقى عليه أو مدركاً إياه من غير تحقق و لادقّة هذا في الغالب.

لذلك فإنّه يشرع في بناء حوصلة ممّا يلقى عليه انطلاقا ممّا يسمع أو يرى،فإذا جاء على نهاية المرسلة اكتملت أجزاؤها في ذهنه وصعدتْ معانيها إلى عقله،فيتخّذ تجاهها موقفا معينا،فالمتكلم تسبق أفكاره أفعاله الكلامية،و المتلقي تسبق قراءته أو سماعه أفكاره التي لا تكتمل إلا بعد فك رموز الرّسالة.

الهوامش:

1–دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد التنجي ط2/1997 دار الكتاب العربي بيروت ص:13.

2–الكتاب سيبويه تحقيق عبد السلام هارون ط3/1983 عالم الكتب مصر ج1/23.

3–مجلة عبد القاهر الجرجاني منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية سنة 1998 جامعة صفاقس ص:12من مقالة للأستاذ محمد عمر الصّاوي.

4–دلائل الإعجاز ص:43،42.

5–الكشاف للزّمخشري ج2/543.

6–علم اللغة مقدمة للقاريء العربي د.محمود السّعران دار النهضة العربية بيروت ص:205 نقلا عن كتاب اللّغة لفندريس ص:104.

7–ينظر المعرفة اللّغوية نوام تشومسكي ص:87.

8–سـورة مريم/19.

9–دلائل الإعجاز ص:93.

10–مقدمة ابن خلدون مكتبة و مطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم و الكتب الإسلامية ص:413.

11–دراسات لسانية مازن الوعر طلاس دار –دمشق–ط1/1989 ص:237.

12–ديوان الحماسة المرزوقي تحقيق عبد السلام هارون ط1/1951 القاهرة القسم الثاني ص:894.